

المنظومة الفكرية التربوية والتعليم بين السائد والبديل...

إبراهيم أبو الهيجا

هذا الفصل هو نتاج مجموعة من اللقاءات التعليمية التي بحثت في المتاهات الفكرية التي تتشكّل ممارساتنا الاجتماعية من خلالها. إن هذه المتاهات الفكرية هي المتاهات ذاتها التي تنبثق منها مفاهيمنا الاجتماعية أيضاً. ورغم أن اللقاءات قد تحورت حول "الفكر"، إلا أننا قد بدأنا مسيرتنا عبر تحليل ممارساتنا اليومية من خلال تحديد المواقف والممارسات التي تشكّل، في رأينا، حاجزاً أمام تطوّر المجتمع وتحريه من القيود². ولقد أدركنا، من خلال سيرورة الاستقصاء، بأنّ "الفكر" يؤثّر على الممارسات ويتأثّر منها في الوقت ذاته. وسنرى لاحقاً أن هذا الفط من التفاعل الذي يحكمه تأثير متبادل ومتزامن بين عاملين "يؤثّر على... وبذات الوقت يتأثّر من...". هو، على ما يبدو، واحد من ميزات منظومة فكرية معيّنة تميز بها عن المنظومات الفكرية الأخرى السائدة والمتعارف عليها. كان الاستنتاج الجوهرية الذي انبثق من تحليل ممارساتنا والذي رافق حديثنا خلال كلّ اللقاءات، يؤكّد على أن الممارسات الاجتماعية ما هي إلا انعكاس لمنظومة فكرية نكتسبها ونقوم بتذويتها مع الوقت. ولكنها ليست متوارثة، أي أن الفرد يتعلمها خلال حياته ولا يرثها عبر الجينات، فهي ليست بنويّة وإنما مكتسبة.

إذا قمنا بالتعمّن في ممارساتنا اليومية واستقصينا الأسس الفكرية التي نعتمد عليها، فإننا سنجد أننا قد اكتسبنا الأسس الفكرية التي تقود ممارساتنا كأفراد وكمجتمع عبر ثلاثة قنوات مترابطة وغير منفصلة: (1) المعرفة التي يتمّ نقلها عبر

2. انا اتحدث هنا عن لقاءات دورة "تدريب المدربين" والتي شاركت فيها كمرافق لسيرورة التعلم. استعملت لغة الجماعة لأشير بشكل واضح إنني كنت مشاركاً باللقاءات وجزء من سيرورة التعلم بالرغم من الاختلاف بدوري كموثق ومرافق للسيرورة. ويجب هنا الإشارة إلى أننا في اللقاءات الأولى حددنا وعرفنا ما هي "القيود" الاجتماعية ولماذا نسميها قيود وكيف تؤثر على عملية التطوّر.

جهاز التربية والتعليم الرسمي و (2) التفاعل مع خريجي هذا الجهاز من أهل وأبناء العائلة والمجتمع وبالطبع (3) وسائل الإعلام التي تتحدث بلغته وتعمّق مفاهيمه. لذلك سنركّز غالباً في تحليل وبحث المصطلحات ضمن التربية والتعليم كمجال معرفة .

سأقوم، في السطور أدناه باستعراض خلاصة ما تمّ بحثه في مجموعة من اللقاءات حول مفهوم "المنظومة الفكرية" وعلاقته بالتغيير الاجتماعي لكونه عاملاً جوهرياً واسباسياً لفهم المشكلة، إن وجدت، ولتحديد المفاهيم المرتبطة بها، وصولاً إلى وضع استراتيجيات بديلة. سأتطرق، بدايةً، إلى تعريف المصطلح وبناء لغة مشتركة حول ما الذي نعنيه حينما نتحدث عن منظومة فكرية، ومن ثمّ سأتحدث عن السياقات، وبعدها سنعرّف كلّ من المنظومة الفكرية التقليدية، والسائدة، والبديلة.

السياق التاريخي للمنظومة الفكرية:

إن الادعاء المطروح يقول بأنّ "المنظومة الفكرية" المسيطرة والسائدة اليوم (وبشكل خاص في جهاز التربية والتعليم) بدءاً من المدرسة ووصولاً إلى المعاهد العليا، هي منظومة فكرية غربية نت وترعرعت في أحضان خيرة المفكرين الغربيين. ولقد كان الجهاز الاقتصادي الرأسمالي، ولا يزال، يشكّل لها دفيئة ويرعاها كآلية يوطّد بها بنية اجتماعية تسير وفق قوانينه واصلحته. السؤال هنا، بالتالي، هو: هل تصبّ مصلحة هذا الجهاز في مصلحة الإنسانية؟ وهو سؤال يبقى مفتوحاً ومثار جدل بين الناس، أمّا أنا فسأنتفخ مع آخرين أنه مصدر لعاناة البشرية عامة ومجتعنا خاصة...

لذلك، سأتناول مصطلح "المنظومة الفكرية" من بابين: الباب الأول يعود إلى المجتمع الذي نما فيه المصطلح، أي المجتمع الغربي، والذي، بالتالي، تمّ تعريف المصطلح بلغته وضمن آلياته. والباب الثاني سيتطرق إليه د. منير فاشة في مقالته "قصتي مع الرياضيات" حيث يستعرض خلالها إشكالية هذا الفكر وتأثيره ويعرض مصطلحات بديلة تعود جذورها للثقافة العربية (انظر الفصل الثاني).

"المنظومة الفكرية" - التعريف اللغوي:

إنّ الفرضية الأساسية التي نتعامل معها هي أن اللغة تشكل انعكاساً للثقافة والفكر. ولذلك، فقد كان من المهم أن نبدأ بمراجعة المعنى في اللغة قبل الاجتهاد لبناء معنى مشترك ممكن أن تتقاسمه مجموعة متعلمة وباحثة. فلا بدّ، أولاً، أن نشير إلى أن المصطلح العربي "المنظومة" التي استعملناها في هذا المشروع جاء كترجمة للمصطلح "Paradigm" باللغة الإنجليزية، رغم أن هذه الترجمة ليست

دقيقة تماماً ولكنها جاءت لتخدم المعنى الجوهرى بالأساس. إن معنى "Par-adigm" بحسب قاموس Merriam-Webster: "نظريّة أو مجموعة من الأفكار حول الكيفيّة التي ينبغي أن يتم بها الشيء، أو يتشكل بها، أو انطباعنا عنها". أما باللغة العربيّة وحسب قاموس المعاني الجامع فقد جاء على هذا النحو: "مَنْظُومَةٌ فِكْرِيَّةٌ: أَيْ أُطْرُوقَةٌ تَتَضَمَّنُ مَفَاهِمَ كَوَلِّ قَضِيَّةٍ فِكْرِيَّةٍ". والأطروحة الفكريّة هي "المقولة أو المسألة". إذا قمنا بإمعان النّظر في التّفسيرات اللّغويّة أعلاه فسنجد أن القاسم المشترك للمعنى في الإنجليزيّة والعربيّة يتمثل في تشكيل "المنظومة الفكريّة" لإطار و/أو مظلة و/أو مرجعيّة يحدّد/تحدد الطّرق والآليات التي نفكر من خلالها ونعمل بها...

المنظومة الفكريّة – ما بعد اللّغة:

في مقالة تحت عنوان "ما هي المنظومة؟"³ يدّعي الباحث الأكاديمي إيريك يوركتورك Erik Göktürk بأن المصطلح قد انتشر استعماله في العصر الحديث بعد قيام المفكرين الغربيين توماس كون Thomas Kuhn وميشيل فوكو Michel Foucault باستخدامه بشكل مكثّف. في مقالته هذه ادعى يوركتورك بأنه وعلى الرغم تأثير هذين المفكرين والمتمثل في إشاعة هذا المصطلح في معظم العلوم العصريّة، العلميّة منها والاجتماعيّة، إلا أنهما لم يقيما في أدبيّاتهما بتعريف المصطلح بشكل واضح. وبالتالي، فإن التّعريفات التي وصلتنا ليست سوى اجتهادات باحثين آخرين لسوا الحاجة إلى تليخيص وتوضيح التّعريف وتعريف استعماله. هذا، ويقدم يوركتورك في مقالته إلى القارئ تعريفات عدّة. وقد وجدت بأن التّعريف التالي هو الأنسب والأشمل:

إنّ "المنظومة الفكريّة" هي مجموعة من المفاهيم، القيم، وجهات النّظر، والممارسات التي تتقاسمها مجموعة من الناس بحيث يقومون من خلالها بتنظيم أنفسهم، وتشكّل عبرها رؤيتهم العينيّة للواقع.

إنّ "المنظومة الفكريّة"، بنظرة أكثر شمولاً وبصيغة بسيطة، هي الرّؤية التي نشاهد من خلالها العالم. وهذا التّعريف ليس ببعيد عمّا أورده "توماس كون" في كتابه "مبنى الثورات العلميّة" حيث تحدّث عن المنظومة الفكريّة كمنظومة واسعة من "المعتقدات والقيم والتقنيّات" والتي تحدّد بدورها "الطّرق والمعايير التي نتبعها لتحليل المفاهيم وفهمها"⁴.

3. Erik Gokturk, "What is Paradigm?", University of Oslo

4. Kuhn, T; The structure of the scientific revolutions; University of Chicago Press, 2nd Edition, (p, 48, 175) 1970

المنظومة الفكرية السائدة والفكر البديل - السياق اللغوي

حسب قاموس الجامع للمعاني، فإن "السائد" هو الشائع والطاغي والمسيطر وهو المسلّم به والمرجّح على العموم. إذًا: أننا، حين نتحدّث عن "منظومة فكرية سائدة"، فأننا نقصد بذلك مجموعة من المفاهيم، القيم، وجهات النّظر، والممارسات والمعايير التي يميل العموم، أي معظم الناس، إلى تبنيها كمسلّمات.

في بعض الأحيان يجري استخدام المنظومة الفكرية "التقليدية"، كمرادف بدلا عن كلمة "سائدة". حسب قاموس الجامع للمعاني فإن الـ"تقليديّ" هو الذي يسير على العادة، والفكر التقليديّ هو المتسك بالقديم. في هذه الحالة فإن المنظومة الفكرية التقليدية هي مجموعة من المفاهيم، القيم، وجهات النّظر، والممارسات والمعايير القديمة التي نتمسك بها. إنّ وصف المنظومة الفكرية بالتقليديّ و/أو السائد، في كلا الحالتين، يشير إلى بُعدين جوهريّين مرتبطين عضوياً وهما: الزّمن وكَم الناس الذي يتبنى الفكر "جرباً على العادة" أو باعتباره مسلّمات. وقد أجمعنا على أنّ استعمال "المنظومة الفكرية السائدة" هو الأفضل كون المصطلح يشير، لغوياً، إلى تعريف دقيق. حيث تجذّرت مفاهيمه في عقول الناس نتيجة سيطرته التامة لمدة زمنية طويلة فأضحى مفهوماً ضمناً ومسلماً به، ما يؤدي إلى صياغته لممارساتنا بشكلٍ تلقائيٍّ وغالباً بشكل غير واعي. عادةً ما تشكّل القيم الافتراضية الأساسية التي نعتمدها (وهي تلك التي من الممكن أن نطلق عليها اسم المرجعية)، مرجعيةً نعود إليها تلقائياً ومن دون وعي في لحظة مباشر فيها بالبحث عن جديد، أو نخطو الخطوات الأولى للتغيير، عندما نشعر بعدم اليقين الذي يرافق التّجديد فنعود إلى القديم المألوف الذي نعرفه. إلى السائد حيث ينحنا العموم حزام الأمان. قمنا بتشبيه هذا الوضع بعملية التنفس التي هي تلقائية وغير واعية، حيث أن عملية التحرر من "معتقدات وقيم وطرق ومعايير" المنظومة السائدة تشعرنا بحالة الاختناق والتهديد والخطر.

إذًا، جاءت المنظومة الفكرية البديلة لتشير إلى كلّ محاولات الاجتهاد التي تقودنا خارج المنظومة الفكرية السائدة وبعيداً عن مفاهيمها، بل إلى محاولة استبدالها بمعايير ومفاهيم وقيم مختلفة. سنرى لاحقاً في لقائنا مع منير فاشة بأن عملية الاستبدال لا تعني بالضرورة استخدام مفاهيم جديدة. فهو يقوم بالتذكير بمفاهيم نعرفها، لها جذور عربية، ولكنها غابت عن وعينا نتيجة سيطرة المفاهيم السائدة على عقولنا، فيستعمل مصطلح "الشفاء من هينة المعرفة".

المنظومة الفكرية السائدة والبديلة في سياق التغيير الاجتماعي:

بناءً على التعريفات التي بحثناها حتى الآن، بات من الواضح لنا بأن الممارسات التي يقوم بها عموم الناس⁵ في المجتمعات عامةً وفي مجتمعنا خاصة، تنبثق من المنظومة الفكرية السائدة التي يقومون من خلالها بتنظيم أنفسهم. وهي المنظومة التي تتشكّل عبرها رؤيتهم العينية للواقع. وسأقوم لاحقاً بتسليط الضوء على ماهية هذه المفاهيم والقيم والمعايير التي تتحدث عنها في زمننا الحالي ولكن يجدر الإشارة في هذه المرحلة على أن التعريفات وحدها تشير إلى أن أية منظومة فكرية سائدة تشكّل، عملياً، عائقاً أمام الاجتهاد من أجل إيجاد مفاهيم جديدة وبلورة رؤية بديلة للواقع وبالذات إذا سادت لفترة زمنية طويلة وتبناه عموم الناس.

من خلال النقاشات مع النشطاء الاجتماعيين والطلاب وعبر سيرورة الاستقصاء في ممارساتنا وفي الممارسات الاجتماعية السائدة، يمكن أن نستنتج أن صعوبة البحث عن فكر بديل وإحداث تغيير في ظل منظومة فكرية سائدة تتبع من مصدرين في آن واحد: الفرد والمجتمع. فمن جهة، يشعر الفرد بالرهبة من انعدام الأمان في عالم مفتوح جديد خارج عن المألوف. هذا العالم الجديد مليء بعدم اليقين، وهو ما يثير الرهبة والخوف لديه رغم وعيه بضرورة الحاجة إلى التغيير، وبذا فإن الفرد يتراجع أحياناً إلى ما هو آمن ومألوف. وفي الوقت ذاته، فإن المجتمع لا يتقبل الجديد ومحاولات الخروج عن المألوف والشائع، حيث يتعامل المجتمع مع هذه المسائل، غالباً، باعتبارها خرقاً للمسلّمات التي تشكّل أساساً للتوازن الاجتماعي. هذا تناقض بنيوي في طبيعة الإنسان فمن ناحية الفرد بحاجة للمجموعة وحمايتها وبذات الوقت المجموعة ممكن أن تشكل عائقاً لتحرير الفرد من قيوده اما عبر ممارسات مبطنة أو ممارسات مباشرة.

تصنيفات معاصرة:

المنظومة الفكرية كمظلة لمجموعة مختلفة من النظريات

بدايةً يجب التنويه في هذه المرحلة الى ان هنالك فارق كبير بين النظرية والمنظومة الفكرية. فالباحث يتناول من خلال النظرية قضية معينة فيثبت صحتها بالحجة والدليل والبرهان⁶ وغالباً ما يعمم الباحث نتائج بحثه لتغطّي نهجاً ورؤية معينة

5. للتوضيح فإن استعمال مصطلح "عموم الناس" مقتبس من تفسير سائد في القاموس وجاء ليشير إلى غالبية الناس ويمنع التعميم على الأغلبية ولكنه يوضح أن المنظومة الفكرية السائدة هي شائعة بين الناس كمسلمات على أنواعهم وبغض النظر عن خلفياتهم المهنية و/أو الأكاديمية.

6. القاموس الجامع للمعاني.

لها علاقة بالقضية التي هي قيد البحث. هكذا، فإن الباحثين ومن خلال النظريات المختلفة التي يبلورونها يتناولون مجموعة من القضايا المختلفة في مجال معين. ففي مجال التربية والتعليم، مثلاً، نجد طيفاً واسعاً من النظريات المختلفة في مجال تدريب الطواقم، طرق التعليم، طرق التقييم، وإدارة الصف، إدارة المدرسة كما هو تعريف ماهية التعليم كموضوعة، الخ... أما المنظومة الفكرية فنذكر أنها تشمل مجموعة واسعة من "المعتقدات والقيم والتقنيات" التي يتبناها مجموعة من الناس (في هذه الحالة الباحثين) والتي تحدد بدورها "الطرق والمعايير التي يتبعونها من أجل تحليل القضايا وفهماها". بناءً على ذلك يصبح من الممكن اعتبار المنظومة الفكرية مظلة تبلور من خلال مفاهيمها وطرق عملها ومعاييرها مجموعة واسعة من النظريات المختلفة. في هذه الحالة أضى التحدي يتمحور حول السؤال التالي: كيف ممكن أن يتم تصنيف هذا الطيف الواسع من النظريات المختلفة والتي تطوّر قسم منها عبر حقب زمنية مختلفة؟ وبكلمات أخرى: كيف يمكننا أن نميز بأن هذه النظرية الموجودة على طيف النظريات لمجال بحثي معين تتبع لهذه المنظومة الفكرية وليس لمنظومة أخرى؟

يتفق الباحثون المعاصرون في هذا المجال بأن التصنيف ليس مفهوماً ضمناً وبأنه من الممكن أن يكون خلافياً. ولكنّ الادعاء بأنه وعلى الرغم من اختلاف النظريات في مجال معين مثل التربية وعلى الرغم من أن تلك النظريات قد تطوّرت عبر حقب زمنية متتالية ومختلفة، إلا أن اختلافها ليس بالضرورة جوهرياً. وذلك لكونها قد تأسست على ذات القيم والمعتقدات ولأنها استندت إلى ذات الطرق والمعايير. بكلمات أخرى، فأنا كلما تمحورنا في الفرضيات الأساسية التي تعتمدها النظريات المختلفة، فإن الحدود ستتوسع لتشمل عدداً أكبر من النظريات، لدرجة أن هذا الطيف المختلف من النظريات المعروفة لنا اليوم، يصبح من الممكن تقسيمه بين منظومتين فكريّتين: منظومة فكرية سائدة منذ ستائة سنة وتعتمد على التصور "الخطي" لدينامية وصيورة النظام ومنظومة بديلة معاصرة حديثة العهد تعود بداياتها إلى ستة عقود فقط⁷.

7.

Bob dewit & Ron Mayer; Strategy: Process, Content, Context; West Publishing Company; 1994
Doll, W; A postmodern Perspective on Curriculum; Columbia University; 1993
Doll, W. E. (2008, Spring/Summer). Looking Back to the future: A Recursive Retrospective, .
Journal of the Canadian Association, For curriculum studies, 6. Retrieved January 8, 2014
Stacy, R.; Strategic Management & organization Dynamics; Prentic Hall,3rd Edition; 2000

بين المنظومة الفكرية السائدة والبديلة - مسح مقارن للتعريفات

لن يتاح لنا ضمن هذه المقالة بأن نخوض في تحليلات مطولة وتعريفات علمية مفصلة ولهذا ندعو القارئ للاطلاع على المراجع المستعملة وجميعها تحتوي على دراسات معمّقة ودقيقة للفارق بين المنظومتين. وكون أن هذه المراجع هي باللغة الإنجليزية فستشكل الفقرات التالية مدخل معيّن لبعض المصطلحات العامة.

لأتم هذه المهمة، تعريف المنظومتين الفكريتين-السائدة والبديلة، استعملت أسلوب المقارنة كون أن الممارسات والمعايير والمفاهيم للمنظومة السائدة هي المألوفة وبالتالي فهي شكلت نقطة الانطلاق لتوضيح الفارق بينها وبين الطرح البديل.

معظم الأدبيات الباحثة في الموضوع تشير إلى أن عالم الفيزياء المشهور نيوتن هو واحد من آباء المنظومة الفكرية السائدة. وتصوّره للواقع والعالم على أنه آلة دقيقة جداً، أشبه بالساعة، بقدر ما هو بسيط بقدر ما هو مركب فكانت له أبعاد عميقة على مستقبل البشرية وبلورة مفاهيمها الحديثة.

يسيطر هذا التصوّر النيوتوني للواقع على تفكيرنا منذ أكثر من 600 سنة، ويتحكّم في كيفية فهمنا لدينامية وحركية النظام بشكل عام والتربية والتعليم بشكل خاص، الذي تجذّرت من خلاله معتقداتنا وقيّمنا وممارساتنا الاجتماعية السائدة (Doll, 2008, Stacey, 2000, 2006, Stacy, 2000, Fong⁸). يُعرّف المتّرسون في هذا المجال وتحديدًا الفيزيائيون، هذه المنظومة الفكرية السائدة "كمنظومة التفكير الخطية" أو التصوّر "الخطي" للأنظمة Linear Approach for Systems Dynamics. تقول الفرضية الأساسية التي تقف وراء هذا التصوّر بأن العالم هو عبارة عن نظام مغلق دقيق وثابت، حيث يكتننا التنبؤ بنتائج التفاعلات بين العناصر المختلفة المكونة له وفقاً لقواعد محدّدة تخضع لما يسميه الفلاسفة والعلماء بالسببية (Doll, 2008, Stacey 2000) أي أنّ العالم يتشكّل ضمن علاقة واضحة بين النتيجة والسبب مما يكتننا، أولاً، من التنبؤ بالنتائج (التخطيط للمستقبل القريب والبعيد)، وثانياً، يكتننا عبر عملية استقصاء تحديد أسباب النتيجة (الرجوع بدقة إلى الماضي). بكلمات أخرى، نحن لسنا قادرين على تحديد العوامل المؤثرة على عمل هذا العالم وكيفية تأثيرها فحسب، وإمّا نكون قادرين أيضاً على قياس مدى تأثيرها.

8. Fong, K. I. (2006). Complexity Theory and Staff Development. APERA Conference. Macua, Hong Kong: Macau Inter-University Institute.

إذا تناولنا جهاز التربية والتعليم كمثال، فوفق مفاهيم هذه المنظومة الخطية، نحن قادرين على تحديد العوامل والأسباب الأكثر تأثيراً في رفع مناسيب "النجاح" وبالتالي فإن القائمين على هذا الجهاز قادرين على إجراء تخطيط دقيق لسيرورة التربية والتي باعتقادهم هي كفيلة بالحصول على النتائج المرجوة. نحن قادرين على تحديد الأسباب التي تؤدي إلى النتائج بل نحن قادرين على تحديد مدى تأثير كل سبب وسبب على النتيجة النهائية. فيما يتم اعتبار العوامل أو الأسباب الأخرى كهامشية، وذلك إما لأننا نعرفها كهامشيّة (كون أبحاث معينة أشارت إلى أن تأثيرها هامشي و/أو لم تثبت مدى أهميتها) أو ببساطة لجهلنا وعدم وعينا لوجودها أصلاً. ينتج أيضاً عن هذا التوجه، طبعاً، نقاش بين المهنيين حول ما الذي يحدد معنى "النجاح"؟ ولكن ما يميّز المنظومة الفكرية أيضاً، كما ذكر في البداية، هو كونها تحدد أيضاً القيم والمعايير التي يجري تقييم الأمور والأحداث بحسبها. وبالتالي فإن منتقدي هذه المنظومة يدّعون بأن إحدى مخلفات السببية وتصوير العالم باعتباره آلة هو "المعايير" الخارجية التي يجري تقييم الأمور وفقها⁹. لم يسعنا الوقت لمعالجة هذا الموضوع بتوسع ولكن لا بد من الإشارة هنا إلى أن الفيزيائي ديفيد بوم تناوله بشكل مثير للاهتمام في مقاله المقارنة "المعايير في الغرب والشرق"¹⁰.

بحسب التصور السائد في هذه المنظومة "الخطية"، إذا، يتمّ تصميم القواعد وبلورة النظم الكفيلة بضبط النظام الآلي، بمعنى السيطرة على تصرفه وعلى نتائجها التي تهدف لحفظ التوازن الذي يميّز العالم أو النظام الميكانيكي مبناه. ومن خلال عملية البحث التي تتمحور بالسبب والنتيجة ممكن إضافة المزيد من القوانين و/أو النظم أو تعديل القائم منها، أو ببساطة، التخلص من المصدر الذي نعتقد انه يؤدي لعدم اتزانها (Doll, 2008). حسب هذه المنظومة الفكرية فإن التناقضات والصراعات المنبثقة من التفاعل بين العناصر المختلفة المكونة لأية نظام، هي عبارة عن ضوضاء تززع استقرار النظام وتُحد من قدرتنا على التنبؤ بالنتائج والسيطرة عليها. ولذلك، يتمّ تصميم القواعد وبلورة النظم لقمع هذه الصراعات وتهميش التناقضات وحتى العمل على إزالتها. بسياق التربية والتعليم، مثلاً، يزعم فونغ (2006) بأن البشر، حسب هذه المنظومة "يعادلون عدم التوازن بالفشل". كما يزعم ستايسي (2008) في المقابل، بأنه يتمّ قبول وتفسير التميّز على كونه "انسجاماً مع الأداء" لتحقيق أهداف معينة بشكل مسبق وفقاً لمجموعة من الأنظمة والتعليمات. هكذا، يترتب على هذا التوجه "الخطي" في التعليم إلزام الطلاب

9. انظر اللقاء مع منير فاشة.

10. David Bohm, Measurements in the East and the West ,The Link, Krishnamurti Foundation Trust, 1973 (Originally published in KFT Bulletin 17)

بالحصول على نفس المقدار من المعرفة بحجم واحد يناسب جميع أنظمة التعليم، وهي الأنظمة التي تمّ تصميمها على كونها آلة مع مبنى هرمي تسلسلي محدّد وتحزّكها مجموعة من الأهداف تمّ وضعها مسبقاً لتكون مقياساً للأداء "الناجح" أو الأداء المنسجم مع النظام. في مثل هذه الأنظمة الهرميّة، يلعب المعلمون دور "الوحدات" أو "الوسائط" التي تنقل المعرفة والمعايير والقواعد المطلوبة، وهي مسؤولة، بالتالي، على "ضبط" سلوك الطلاب ليحقق النظام أكبر درجة من السيطرة والالتزان. في نفس الوقت، طبعاً، يتمّ التحكم بالمعلمين أنفسهم وفقاً لأهداف مسبقة تمّ وضعها من قبل صانعي القرار السياسي من أجل تحديد ماهيّة اللتزان وذلك عبر نظم وقوانين وإرشادات وآليات تقييم والخ... في هذا النوع من المبنى الاجتماعي الميكانيكي والهرمي، يُنظر إلى الاختلافات والتنوع ما بين الناس باعتبارها مصدراً لعدم الاستقرار بحيث تتوجّب السيطرة عليها عن طريق توحيد وتطبيع كلّ من المعرفة والسلوك.

لهذا التصوّر، غما أيضاً وترعرع مصطلح "الموضوعيّة"، أي أن الباحث أو المعلم في حالة "جهاز التربية والتعليم" أو أي مشاهدٍ للظواهر قادر أن يكون "موضوعياً". فالمعلم بالصف يلعب دور "ضابط سلوك" و"ناقل للمعرفة" بشكل "موضوعي" فهو قادر أن يفصل عن ذاته وعن مشاعره النابعة من اختلافه ليتحول إلى "المشاهد الموضوعي" لما يحدث ضمن الحيز الذي يتفاعل فيه "المتلقين". بكلمات أخرى هو قادر أن يفصل نفسه عن المجموعة المتفاعلة، ينظر إليها ويقيّمها بشكل "موضوعي" وفق النظم والتعليقات والخطة المسبقة التي يعمل وفقها. لهذا السبب في مرحلة معينة من تاريخ هذه المنظومة الفكرية هنالك من أطلق عليها اسم "التوجه التخطيطي". النظم والتعليقات المستقاة من الخطة المحكّمة للوصول إلى التوازن هما محور التفاعل ومنبعه.

إن النهج البديل، في المقابل، والذي يطلق عليه التصوّر "غير الخطّي" Non-Lin-ear Approach for Systems Dynamics، هو محاولةً لطرح فهمٍ بديلٍ للمنظومة الاجتماعيّة، حيث يتعامل مع المنظومة عامّةً والاجتماعيّة خاصّةً كمنظومة معقدة تتشكّل بشكل دائمٍ من خلال التفاعل بين الأفراد المترابطين عضوياً والذين تحكّمهم العلاقات العضويّة (Youngblood, 1997; Cilliers, 1998; Wheatley, 1999). بدأ هذا التصوّر البديل بالتغلغل بين مفكّري الغرب في بداية الخمسينات من القرن العشرين وتحديداً مع ظهور نظريّة "الفوضى". إن التسمية، في هذه الحالة، تتناقض تماماً مع القيم والمعتقدات في المنظومة الفكرية الخطيّة السائدة كونها ترمز إلى حالة عدم التوازن التي تميز ديناميّة وحركية النظام. وبالتالي، على ما يبدو، فإن صعوبة التعامل معها تتأتى من هنا أيضاً. مع هذا فمن المهم أن نشير إلى أن ضمن المنظومة البديلة فإن مصطلح "الفوضى" يتحدث عن "النظام

الكامن في عدم النظام” أي النظام المفتوح كتصوّر مناقض وبديل للتصوّر الذي يتعامل مع العالم كنظام ميكانيكي مغلق. هذا التصوّر يتعامل مع العالم عامة والمنظومة الاجتماعية خاصة، باعتبارها شبكة مركبة ومعقدة من العلاقات بين العناصر المكوّنة (البشر ولبعض غير البشر) المختلفة بطبيعتها والتي تتميز بمستوى عالٍ من التنوّع. الادعاء الأساسي هو بأن الأفراد يختلفون جوهرياً بطبيعتهم، والعلاقات فيما بينهم تنتظم ذاتياً بشكل لا يمكن ضبطه. لهذا السبب، لا يمكن توقع نتائج التفاعلات والعلاقات فيما بينهم أو مع البيئة المحيطة بهم. إذاً هذه الرؤية لا تتسم بالسببية ولذلك فإن هنالك اعتراف بعدم القدرة على التنبؤ، وهنالك اعتراف بعدم القدرة على فهم ما حدث في الماضي بالضبط. عدم اليقين الذي يرافق عدم قدرتنا على التنبؤ في النتائج يعتبر ضمن المنظومة السائدة مصدراً للخوف والإحباط بينما ضمن هذا التصوّر البديل فهو حالة لا بد منها للإبداع، حيث ممكن أن تنبثق من هذه التفاعلات غير المتوقعة استراتيجيات عمل رائدة. إنّ الشعور وما يتبعه من تناقضات وموازين قوى، ضمن هذا التصوّر، هو أمر جوهري في فهم النظام والحفاظ على ديناميته. كل مشارك في هذا التفاعل هو مؤثر في وبذات الوقت متأثر من التفاعل وبالتالي لا يمكن الحديث عن مصطلح ”موضوعي“ في سياق هذا التوجه. إذا سلطنا اهتمامنا على جهاز التربية والتعليم كمثال، فممكن أن نتحدث ضمن هذه الرؤية عن تغيير جوهري لدور المعلم كمشارك ”ذاتي“ (عكس موضوعي) بضرورة التعليم. ينصبّ تركيز الطاقم التربوي هنا على محاولة تتبّع وفهم العلاقات، الظاهر منها والضمني أو الكامن والخفي في داخل الفرد، وهي محاولة تتطلب مهارات في التعامل مع عدم اليقين المرافق للتفاعلات مع الآخرين وقدرة عالية على بلورة استراتيجيات كردّة فعل للنتائج التي تنبثق من هذه التفاعلات. من جهة ثانية، المعلم يعي تماماً ضمن هذه الرؤية بأننا لا نستطيع، حقيقةً، تحديد العوامل التي ستؤدي إلى النّجاح كما أننا لا نستطيع أن نهمّش عوامل معيّنة يكون تأثيرها على النّجاح، باعتقادنا، قليلاً أو معدوماً، كما لا يمكن تحديد مدى فاعليتها على السّيرورة التربوية. من المهم الإشارة هنا، مقارنة مع النظام الميكانيكي، حيث إن إنشاء المعرفة يتم عبر ”نقل“ المعلومات ضمن تسلسل هرمي واضح، تتركز بالمنظومة البديلة في إنشاء المعرفة عبر البحث في المعلومات من خلال تنمية العلاقات ضمن منظومة اجتماعية تفاعلية. يقول فونغ (2006) بأنه من خلال فهمنا للمنظومة بهذا الشكل ”غير الخطي“، دور المعلمين يتحول من ناقل إلى المعرفة وضابط للسلوك لحفظ التوازن إلى مرافق يوجه عبر خبرته شبكة غنية بالعلاقات، تعتمد على نسيج دقيق ومركب من العواطف والمشاعر المبطنة والظاهرة في آن واحد، تنبثق منها مسارات جديدة لا نهائية من الفهم والاستفهام تقودها سيرة استقصاء للمشاركين بالعملية التعليمية. هذا التوجه يرمز إلى أن ”التفوق“ في التعليم لا يمكن تحقيقه

من خلال قواعد وأنظمة وتعريفات واضحة، بل من خلال تنمية العلاقات الجيدة وإدارة التفاعلات بحيث تتحوّل من خلالها المعلومات وتتبلور معرفة جديدة.

هذا الاختلاف الجوهرى فى المفاهيم الأساسية بين المنظومتين بين التوجه الخطى والسببى لدينامية النظام وبين التوجه اللا خطى، بين رؤية العالم كنظام ميكانيكى هرمى، لرؤيته كنظام عضوى معقد مفتوح، يولد بطبيعة الأحوال وكما ذكرنا اختلاف ليس فقط بالقيم والمبادئ الموجهة وإنما بآليات العمل والتقييم.

إنّ المنظومة الفكرية الخطية السائدة قد وُلدت مع عصر التنوير فى الغرب وطغت على عموم الناس فى كلّ مكان وزمان، وهذا بحدّ ذاته مثير للاهتمام. ولا يزال تأثيرها، حتى الآن، على ما يبدو، أعمق وأقوى من أية ديانة وُجدت على هذه الأرض. إنّ المنظومة الفكرية "اللا خطية" إن صحّ التعبير قد ولدت أيضاً فى أحضان الأكاديمية الغربية وهى محاولة جديرة بالاهتمام لفتح باب الاجتهاد فى القبيلة الأوروبية¹¹ بعد اغلاقه لحقبة زمنية طويلة. الادعاء بأن طيف النظريات المختلفة هو بالأساس خلاف بين منظومتين فكريّتين والنزى قد ولد وتغلغل ودار وما زال يدور فى الغرب، بدون أى شك، هو جوهرى، فى الأكاديميات الغربية، وهى التى تشكّل مصدر ثقافتنا الأكاديمية الحالية. فى المقالة التالية سيعرض الفكر الفلسطينى وجهة نظره حول هذا الفكر الاوروبى والنزى يطلق عليه فكر "القبيلة الأوروبية" وهو يذكر بمقالته بفكر آخر منبعه الثقافة العربية والتى تمنحنا فرصة لنعيد النظر من جديد بما يدور حولنا ولربما تؤشر أيضاً إلى منابع أخرى للفكر البديل تم قمعها أو تهيمشها لفترات زمنية طويلة ولكنها كانت موجودة وقائمة كما يدعى د. منير فاشة ونحن وظيفتنا حالياً أن نذكر من حولنا بوجودها... ولربما نعيد استعمالها.

11. هذا مصطلح يستعمله د. منير فاشة فى مقالته وهناك تجدون تفسيراً لسبب استعماله.